عجائب مصر

أعطى مايكل وود صورة عريضة لتاريخ مصر عبر التوقف عند محطات الإعجاز الحضارى وقراءة الأحقاب المختلفة عبر علامات قائمة على وجه الأرض المصرية اعتبرها العجائب المدهشة التى تمثل مسيرة متصلة، تستوعب وتتأمل، وتنضج الرؤى المختلفة ، وتحولها إلى مياه إنسانية فى مجرى نهر الإبداع وحوار الحضارات ولقاءات الأديان.

وكان وود يتأمل صورة مصر من محطة الجنوب فى رحلة ملوك مصر الفراعنة وتوقف طويلاً عند تجربة إخناتون الدينية ودعوته الفريدة فى العصور القديمة نحو التوحيد والالتفاف حول رمز واحد ينبع منه الكون كله. واعتبر أن اجتهاد «إخناتون» الملك المصرى كان دعوة مبكرة فى أصول العمق الدينى للبحث عن خالق وحيد، يفيض منه الخلق والحياة الإنسانية والكون بما فيه.

وتلقت دعوة الملك «إخناتون» المبكرة اهتمامات الباحثين والمفكرين فى أصول الأديان ما قبل العقائد السماوية، حيث كانت الدعوة المبكرة نوعًا من الاجتهاد الواضح للبحث عن إله تجسد فى الشمس التى تنبع منها الحياة ويستمر بطاقتها الكون.

وتمثل برنامج مايكل وود الذى بثه التلفزيون البريطانى برؤية فكرية عن دور مصر وتاريخها ورسالتها العميقة . والطريقة التى يتم بها التعامل مع التحديات ، وطرح مشاريع النهضة عبر ملوك مصر العظام رمسيس وأحمس وغيرهما من قيادات قادت المشروع المصرى إلى قمة الحضارة والنهضة البشرية.

ولمس وود ببراعة أن المصريين مهما مرت عليهم ظروف صعبة وتحديات جمة، يستطيعون دائمًا العودة بمنهج وطريقة تعيد عملية التجديد الرائعة فى أشكال مختلفة.

ولمس الباحث البريطانى عبر قراءة جدران المعابد فلسفة البقاء المصرية والاستيعاب الشديد لموجات جاءت أرض مصر وابتلعها هذا المحيط الواسع من حضارة وثقافة وطريقة حياة. حتى الإسكندر الأكبر، الذى جاء إلى شواطئ الإسكندرية بسفن وجنود غلبه الموج المصرى الذى استوعب الهجمة اليونانية وحولها إلى نهر آخر، يروى الأرض ويعمق من فصول التجربة وتألق عمل الإبداع الجميل ، ووقف مايكل وود أمام معبد إدفو فى المرحلة اليونانية يصور ما جرى من حوار بين حضارة وافدة وأخرى قائمة ومشفرة. ولم يحسم السلاح معركة التفوق، إذ إن المعادلة دائمًا فى صالح قوة الثقافة والعادات.

لقد تشبه اليونانيون بالمصريين، القدماء وساروا على نهجهم فى إشارة واضحة إلى أن مصر تملك دائمًا الدفاع عن حضارتها، ونفسها عبر طرق متعددة تتدرج من المواجهة العسكرية إلى الاستيعاب.

فحص البرنامج نقاط البؤر الحضارية التى تمثل محطات الإبداع المصرى من عصور مختلفة تمثلت فى سير الملوك وعجائب مصر من أول معبد الكرنك حتى أهرامات الجيزة الشامخة التى تعد علامه فارقة فى صفحة الإبداع الإنسانى المصرى.

اعتمد تحليل مايكل وود على قراءة واعية لشخصية مصر، عبر فهم عميق لدورها ومكانتها منذ الأحقاب الفرعونية حتى المرحلة الوسطى والعصر القبطى الذى مرت به أرض الكنانة، خلال مشوارها الطويل.

توقف البرنامج البريطانى عند أحداث مهمة فى العهد المصرى القديم ثم تناول اكتشافات حديثة خلال العصر الحديث مع العثور على مقبرة «توت عنخ آمون» ورد الفعل الغربى الذى بدأ يعيد اكتشاف مصر. وكانت عملية التلامس المصرى مع الغرب خلال حملة نابليون حيث كانت موجة الاحتكاك المباشر مع عهود الفراعنة وعصور الإسلام، واهتم نابليون بالفترة الفرعونية ومعرفة أسرارها. وهذا ما تمثل فى فك الشفرة القديمة لقراءة حجر رشيد الذى اكتشفه العالم الفرنسى «شامبليون» يعيد مايكل وود قراءة الاكتشاف الثانى المثير فى العثور على مقبرة الملك المصرى الشاب «توت عنخ آمون» وما مثله هذا الاكتشاف من إبهار حقيقى لمستوى المهارة الفنية، وحجم الكنوز التى كانت موجودة وتعبر كلها عن فلسفة بشأن الحياة. وكان لاكتشاف المقبرة وقع للانقلاب الذى لا يزال مستمرًا منذ الثلاثينيات من القرن الماضى حتى الآن.

يعتقد برنامج مايكل وود أن الصيغة المصرية هى فى فلسفة الاستمرار، والتغلب على الصعاب وامتصاص جميع العوامل المعارضة وتحويلها لصالح نهر التدفق الإنسانى، وهى معادلة فريدة للغاية بالعالم كله.

يقف البرنامج عند محطتين مهمتين فى التاريخ المصرى، فقد اعتبر أن الحقبة الفرعونية تمر فى فصل واحد وتيار مشترك.

يذهب مايكل وود إلى سيناء لزيارة «دير سانت كاترين»، وتأمل حياة الرهبنة والإضافة المسيحية إلى نهر مصر الذى استمر من عصر الفراعنة..ويتعجب من قدرة الدير القديم على الاستمرار والبقاء رغم ما هبت على مصر من موجات وعواصف.

يعتبر البرنامج أن عدد الأيقونات الموجودة بدير سانت كاترين، يعبر عن هذا التماسك فى شخصية مصر ،والقراءة العريضة لتاريخها عبر الأحقاب. وقد طافت الكاميرا بأرض سيناء

المصرية وتوقفت عند «الدير القبطى» فى إشارة مدهشة إلى استمرار نهج العطاء الحضارى والاتساع العميق لنظرية الامتصاص والحوار ودخول المسيحية مصر والترحيب بها فى معادلة كشفت عن نهج مصرى فى أسلوب خاص تعارض مع الكنيسة فى روما.

ومن سيناء انتقل مايكل وود إلى القاهرة الفاطمية، وإلى الأزهر الشريف حيث ركزت لقطات الكاميرا على إبداع عمارة أحياء الغورية والجمالية ومناطق خان الخليلى فى متابعة مدهشة لمصر الإسلامية وعالمها المتصل تحت خيمة الإسلام.

يمتدح وود الإسلام ونظرية التعليم التى ارتبطت بالأزهر، المؤسسة والكيان. ويقول: إن هذه الجامعة الإسلامية سبقت اكسفورد وجامعات الغرب فى تحديد نهج البحث والقراءة والانضمام إلى حلقات الدرس.

يشير البرنامج إلى أن القاهرة الفاطمية التى تحتضن الأزهر من عجائب مصر الحضارية والمعادلة البارزة فى قيام الفعل الإنسانى المدهش. ويسلط الضوء على ساحة جامع الأزهر وما يظلله من هدوء وتأمل ويعطى مايكل وود باستقراره فى قاهرة المعز دلالة عن فعل مصر الحضارى والإنسانى، فى وقت تنمو فيه العولمة ويدعو إلى تطبيق النموذج المصرى على العالم لاستيعاب الأديان والحضارات ونمو حلقات التاريخ لتصب فى هذه المعادلة البارزة.

تعطى لوحات البرنامج الانبهار القائم بحضارة مصر المستمرة منذ فجر التاريخ، حيث تستقر على أرضها الديانات وأنماط الفعل البشرى فى انسجام ووئام، لا صراع ولا اختلاف، وإنما تآلف شديد فى محيط التقوى والعلوم وقبول الجميع فى عالم تهيمن عليه الخلافات والصراعات والحروب الدينية.

لقد تمكن المصريون خلال عمق التاريخ من العيش دائمًا معًا، ولم تظهر الحروب الدينية ولا المعارك الطائفية بعكس دول مجاورة، تحقق فيها هذا الصراع.

يعد برنامج مايكل وود الإبحار الذكى فى تيار الحياة المصرية، وقد وقف مبهورًا أمام تمثال الملكة نفرتيتى حيث تحدث عن جمالها الأخاذ، وطريقة نموذج الحياة، الذى كان قائمًا بمصر القديمة، وتواكب المراحل المختلفة على ضفاف نهر النيل مع بقاء النموذج المتميز للاستيعاب والتواصل والبقاء.

اعتمد البرنامج فى بعض من فصوله على إعادة تحسن لقطات ينطلق فى هذه الرحلة المثيرة من جنوب مصر حتى القاهرة ثم الذهاب إلى صحراء سيناء.

واقترب مايكل وود من الأهرامات ومراحل البناء والتأكيد على أن البناة هم المصريون. وصور أماكن وجود الأيدى العاملة التى شيدت هذا البناء العظيم.

لقد أعطت حلقة كاملة لمدة ساعة استعراض تاريخ مصر بالصور والدراما والتمثيل

والتوثيق عند عجائب الوطن من معبد الكرنك حتى الوصول إلى مدينة القاهرة القديمة.

ارتكز البرنامج على معلومات ورؤية حقيقية تقرأ كتاب مصر بشغف وعمق ودراسة ومتابعة. ولقد قصد مايكل وود بيان علامة الاستمرار والانتقال من الفرعونية إلى المسيحية إلى الإسلامية، ووجود كل هذه العناصر على أرض تتعايش فى ظل سلام حقيقى، فالعنصر الفرعونى مستمر بهذا التراث العجيب، والمسيحية ديانة سماوية جاءت إلى مصر وباقية فيها. وقد دخل المصريون فى دين الإسلام عن محبة واقتناع.

ولم تشهد مصر نعرة طائفية تريد حصرها فى خندق ما.. وقد انفتحت أرض الكنانة على التراث العربى وتفاعلت معه وأسهمت بشكل بالغ فى صورة الإثراء القوى العميق. عبر الأزهر الشريف وطلائع الاجتهاد والثقافة المرتبطة بالعقيدة. وتقف الكنائس المصرية علامة على العقيدة المسيحية. ولا أعرف لماذا لم يذهب مايكل وود إلى منطقة مصر القديمة لمشاهدة المنظر الساحر بوجود الكنيسة المعلقة والمعبد اليهودى بجوار جامع عمرو بن العاص.

إن مصر كما يقول مايكل وود معادلة مهمة فى التاريخ الإنسانى يظللها الإصرار على الاستمرار، وقلبها متسامح يسع الجميع فى حضن العائلة ومجرى النيل.

ما تحدث عنه البرنامج التلفزيونى هو بالفعل عجائب مصر ومعادلة التاريخ والإبداع.

مصر فى قلب الكاتب ووعيه ومنذ مغادرته الجسدية لأرض الوطن يعيش فى رحلة حب وبحث فى أوراق التاريخ والفن والأدب لمعانقة التراث ونبض الحاضر.

والكاتب يعيش ببريطانيا ،لكن وعيه كله واهتمامه يتمحور حول مصر الأرض والوطن ومشروع الحياة.

وهذه صفحات تجسد هذه الحقائق فى رحلته داخل بريطانيا، لكن المتأمل فيها يرى أن هدفها هو مصر.

لندن

يناير ٢٠٠٤